

الفُوطى. ويتوقف الجاحظ في كتاباته أحياناً ليقول: وسألت بعض البَحْرِيِّين أو بعض العطارين من أصحاب الكلام، ولا بد أن كان على شاكلتهم بقية التجار وأصحاب الحرف.

وإنما سقنا ذلك لندلّ على أن التثقف بالعلوم وضروب المعرفة كان حظاً مقسوماً بين جميع الأسلاف، وأنه ليس من طبيعة هذه الأمة أن تتخلف في مجالات العلم الحديث. غير أن ذلك كله إذا عرضناه على خصوم التراث قالوا: إننا إنما نريد بالذات ما كان عند الأسلاف من علوم الطبيعة، فقد تقدمت هذه العلوم تقدماً يقطع كل صلة بينها وبين ماضيها عند أسلافنا، فلنبتز هذا الماضي كله بترأ، وفاتهم أن مدارسنا وجامعاتنا جميعها تدرس هذه العلوم بصورتها الغربية الحديثة، بسبب ما حدث فيها من تقدم وتطور واكتشافات لا تكاد تحصى. وإذن فالدعوة إلى رفض التراث حتى نفرغ لدراسة علوم الطبيعة الغربية دعوة غير ذات موضوع؛ لأنها تُدرّسُ فعلاً في معاهدنا وجامعاتنا ومدارسنا. وليس معنى ذلك أن علماءنا جميعاً يجب أن ينبذوا وراء ظهورهم كتابات أسلافنا في العلوم الطبيعية، فإنه ينبغي أن يتجرّد منهم نفر لدراسة هذه الكتابات، لنرى مقدار الصواب عند أسلافنا فيها ومقدار ما أدّوا للإنسانية من خدمات علمية جليلة، وبذلك نعرف دورنا في تاريخ العلم والحضارة، وتمتلىّ نفوسنا حماسة لنهض بهذا الدور من جديد نهوضاً باهراً.

ومعروف أن في الغرب غير مستشرق عُنى بعرض تاريخ أسلافنا العلمى في مجلدات منشورة باللغات الأوربية، وأعجبُ العجب أن يكون ذلك مباحاً للغربيين أصحاب علوم الطبيعة الغربية العصرية، وجرماً علينا، حراماً أن نُحیی تراثنا العلمى الذى يصوّر كيف كان أسلافنا أساتذةً للغرب فى الأندلس وصقلية وفى ثغور الشام ومدى ما نهل منهم أبناء الغرب مما أتاح لهم نهضتهم الحديثة. وهم أنفسهم يستظهرون ذلك مما دفع كثيرين منهم إلى العكوف على دراسته مؤمنين بأنهم لا يستطيعون أن يقفوا على تاريخ علومهم الطبيعية وحضارتهم إلا إذا وقفوا على هذا التراث العربى العلمى فى مصنفاته ومؤلفاته، وكأنما يُطلب منا